

المخطوط جزء من الهوية الوطنية

د/ صادق خشاب

جامعة المدينة

لم يرد لفظ المخطوط في المعاجم العربية القديمة أو أمهات الكتب اللغوية القديمة، والملاحظ أن هذه التسمية لم تكن معروفة أو متداولة قديماً. فهو لفظ حديث في اللغة العربية ظهر في عصر النهضة مع ظهور الطباعة وظهر هذا المصطلح وشاع استعماله بظهور الكتاب المطبوع، أما فيما سبق فكان يطلق مصطلح تأليف أو كتاب أو رسالة أو أمهات الكتب لأنها تجمع مفاتيح العلم والمعرفة والحكمة.

أما في اللغات الأخرى الأجنبية وخاصة اللغة اللاتينية تبين أن هناك لفظان بهذا المفهوم الأول لفظ قديم وهو "Codex" وقد فسر قاموس كولبير "Collier's Dictionary" بأنه الكتابة الأثرية القديمة والتي تعني الكتابة الأثرية على الجدران والألواح، أما اللفظ الثاني والأكثر استعمالاً فهو مصطلح "Le manuscript" وبالرجوع إلى قاموس كولبير كذلك فهو يعني الكتاب أو الوثيقة المكتوبة بالسداد أو بالآلة الكاتبة خاصة قبل عصر الطباعة.

أما الكتب العربية الحديثة التي تناولت تعريفات مختلفة لمصطلح المخطوط، فمنها ما عرفه بالكتاب المخطوط بخط عربي سواء كان في شكل لفائف أو صحف أو على هيئة دفاتر أو كراريس وهو ما كتب بخط اليد.

وهناك تعاريف أخرى كتعريف مصطفى السيد يوسف والذي يقول بأنه أي المخطوط ما كتب بخط اليد سواء أن كان رسالة أو وثيقة أو عهداً أو كتاباً نقشا على حجر أو رسماً على قماش، سواء كان بلغة عربية أو غير عربية.¹

كما يمكن أن نقصد بالمخطوط ما يأتي على شكل كتاب أو كتب قديمة كتب بخط اليد. والمخطوطة هي وثيقة مكتوبة بخط اليد سواء كتبت على ورق البريدي أو الورق أو الجلد أو المواد الصلبة كالحجر، سواء كانت هذه الكتابة على شكل حروف أو نقوش أو رسوم أو خدوش أو غير ذلك.

المخطوطات تمثل وحدة تاريخية أثرية متميزة ذلك لما تعالجه من موضوعات متنوعة متعلقة بتاريخ

¹ - عبد العزيز بن محمد المسفر، المخطوط العربي وشيء من قضاياه، دار المريخ للنشر، الرياض 1999، ص 67 إلى ص 69.

وتراث الأمم والتي تعكس مدى تطورها الحضاري في شتى الميادين والمجالات من علوم وآداب وفنون. هذه المخطوطات تعبر عن أصالة ما تمتلكه هذه الأمم من إنتاج فكري وحضاري خاص بها دون غيرها.

فالأمم والشعوب كالأفراد سواء سواءا تحرص على فطرتها على ما وصل إليها آثار أسلافها عبر القرون وتحافظ عليه وتصونه وتعتبره ديدة غالية تؤديها لأجيالها اللاحقة جيلا بعد جيل تأكيدا لشخصيتها وتدعيما لمقومات بقائها واستمرارها، وتستوي في ذلك الآراء والأفكار والمعتقدات والتقاليد والعادات وأنماط السلوك.²

قبل أن نجزم بأن المخطوط هو كذلك جزء مهم من عناصر ومقومات الشخصية والهوية الوطنية، فلا بد أن نربط هذه الأهمية بما أقدم عليه الاستعمار في حملاته المتعددة والمتكررة على الجزائر، ومن قبل كان هذا الاستعمار يبحث بجواسيس وعيوب له من ضباط فرنسيين في زمن..... ويحسنون اللغة العربية، فيعملون على التعرف على تقاليد ونظم وثقافة المجتمع الجزائري وتزويد العدو بهذه المعلومات لاستثمارها في من بسط هيمنته على المجتمع الجزائري، وأهم من ذلك معرفة مواقع هذه المخطوطات والتحف الثمينة والأثرية لاستهدافها في حملات الفرنسيين وبدءا بحملة نابليون على مصر ولحقت بها حملات أخرى للفرنسيين على بلاد المغرب عامة وعلى الجزائر خاصة، فإنهم كانوا يصطحبون في هذه الحملات المهندسين والأطباء والفلكيين والعلماء على اختلافهم وتنوعهم ورجال الدين وغيرهم. فمن العلماء من يهتمون بالتراث الإنساني والحضاري فمثلا الحملة الفرنسية على قسنطينة سنة 1837 فهي تبعية لحملة نابليون، فكان أحد أعضاء هذه الحملة الضابط "Adrien Berdrugger"³ الذي استولى في وسط الدمار والخراب الذي عرفته المدينة على ما يقارب (800) مخطوط يشمل جميع ميادين الحياة، لكن معظمها قد ضاع بفعل انعدام وسائل النقل المواتية وأتلف معظمها بفعل الحروب وعدم الصيانة والترميم.⁴

وبعد استرجاع السيادة والاستقلال وجدت إرادة كبيرة ومساعد من قبل كوكبة من الأساتذة من أجل بحث وجمع وترميم ما ألحق به الفرد والسعي خاصة لتطوير القسم العربي الذي أهمل في فترة الاحتلال في المكتبة الوطنية، هذا الطرح الذي عرف تطورا أو ذلك بتكوين أيادي ومهارات فنية في الاحتفاظ (الصيانة والمحافظة والترميم للمخطوط طبعا) وكذلك في جلب وسائل لحفظ هذا المخطوط من التأكد والتكسر والرطوبة

² - عبد الستار الملوحي المخطوطات والتراث العربي، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002، ص 58.

³ - مجلة التراث، دائرة حفظ المخطوطات بالملكية الوطنية، أحمد فجر، عدد 2012/04، جامعة الجلفة.

⁴ - أدريان بويرجار، عين محافظا بالمكتبة الوطنية إبان الاستعمار سنة 1835 بقرار من وزير الحربية الفرنسية، ص 1869.

والرطوبة، وصيانة من عوامل أخرى كالضياع والسرقة وغيرها.

كلها جهود تتم عن اهمية التراث المخطوط الذي يمثل جوانب مضيئة في حياة الأمة بالإنتاج الفكري والعلمي.

ذكرنا أن هذا المخطوط يدخل في العناصر المهمة لتكوين الشخصية والهوية الوطنية وذلك باعتباره:

1- وجود المخطوط ينم عن تطور المجتمع بمعرفته لكتابة وامتلاك الوسائل (وسائل الكتابة قلم، ورق أو غير ذلك).

2- سند وشاهد مادي يؤرخ ويبرز درجة تحضر وتطور المجتمع في فترة كتابة الخطوط.

3- المخطوط أحسن دليل وأصدق دليل وأصدق برهان من الرواية والمتشابهة في نقل الأخبار والأحداث عبر مراحل التاريخ، إذن فيمثل جانب هام ومهم وركيزة أساسية عن ركائز مقومات الأمة لإثبات:

أ- شخصيتها وهويتها وانتمائها.

ب- درجة وعيها ورقبيتها وتحضرها.

ت- محافظتها وصيانتها لتراثها المخطوط.

4- هذا الوعي بتراثنا المخطوط يجعلنا نطل من خلاله إلى واقعنا المعاصر بعين البصيرة الواعية التي تبني حاضرها على أسس سليمة ودعائم متينة راسخة من تطلعات الحاضر وعراقة الماضي.

5- الإحساس بقيمة هذا التراث والعمل على استثماره على الأصول والأسس العلمية الحقيقية لرسم رؤيا لجبهة التجديد والمعاصرة.

6- التراث المخطوط هو تاريخ أمة، وإبداع أجيال متعاقبة ومن ذلك الحرص على تحقيقه ونشره للاستفادة منه.

إذن هذه المخطوطات تتفاوت وتتفاضل في القيمة والأهمية من حيث الموضوع والمنزلة والقدم والتوثيق والصحة والضبط، كما تزيد قيمة المخطوط بعد التحقيق والشراء وذلك لما تقدمه من فائدة عامة للعلم والمعرفة.

وحتى لا يكون العمل المحقق ناقص ومتبلورا والخاص بالمخطوط، فالمحقق مطالب بالبحث عن النسخ الأصلية للمخطوط والتأكد منها وإثباتها. مادامنا في طرح هذه المؤسسة الكبيرة التي نحتمي بظلمها نطرح السؤال الكبير هو كالتالي ما هو كالتالي ما دور الجامعة في خدمة التراث المخطوط؟

دور الجامعة في خدمة التراث المخطوط ينحصر في ثلاثة أبعاد أو جوانب، البعد الأول والثاني تتشارك الجامعة وهيئات أخرى في خدمتهما، أما البعد الثالث فهو في صلب اهتمامات الجامعة.

هذه الأبعاد الثلاثة لا يمكن إغفالها في عملية التعامل مع التراث المخطوط، البعد الأول هو التجميع والحفاظ، البعد الثاني التعريف والإعلام والبعد الثالث التحقيق والنشر.

فعملية الجمع والحفاظ والصيانة ليس في مسؤولية الجامعة وإنما هي من مسؤولية المكتبة الوطنية أو مكتبة الدولة، هذا لا يعني أن الجامعة لا تسأل لها بهذه العملية وإنما هي مطالبة بتقديم وتكوين اليد الفنية المحققة في كيفية الجمع والحفاظ والصيانة لهذا التراث.

أما عملية التعريف والإعلام ترجع كذلك إلى دور المكتبة الوطنية في كيفية تقديم هذا المخطوط وتوجيه الباحثين إليه وتنظيم معارض وندوات من أجل الإعلام بهذا المخطوط في مناسبات علمية وثقافية وفي فضاءات علمية تربوية.⁵

إذا كان دور الجامعة بالنسبة لجميع المخطوطات وحفظها، والتعريف بها محدودا، فإن دورها في التحقيق والنشر لا حد له. إذن فكيف يتسنى لها ذلك وما الأدوات التي تستعين بها لتحقيق ذلك.

تعدد السبل والوسائل للمساعدة على التحقيق وأولها إتاحة الفرصة للطلاب في التخصص في هذا المجال بإقامة تخصص بتحقيق المخطوط ثم إثراء البرامج بمواد ومقاييس تعرف الطالب بكل حيثيات هذا العلم أو هذا الاختصاص، كذلك إصدار مجلات ودوريات تعنى بالتراث المخطوط. ولعل المسؤولية الأساسية للجامعة قلنا هي عملية التحقيق التي تقع على عاتق أساتذة وباحثين، فالجامعة هي مركز العلم والحقيقة، ويعتبر تحقيق النصوص عملا أكاديميا مبني على أسس وقواعد وخطوات منهجية حتى يكون العمل المحقق مكتملا. ولا شك أن قيام الجامعة ينشر النصوص المحققة يرفع من قدر علمية التحقيق ذاتها في نظر جمهور

⁵ - عبد الستار الحلوجي، المخطوطات والتراث العربي، ص 60

من كل ما تقدم ما يتبين أن مسؤولية الجامعة اتجاه التراث المخطوط مسؤولية جسيمة لا يستهان بها حاولنا حصرها في الأبعاد الثلاثة المذكورة أنها، بذلك تكون الجامعة أوفت وأتمت بالتزامها ومسؤولية اتجاه هذا المقوم الأساسي في مقاومات الشخصية الوطنية وخدمته ورعته حق الرعاية.

أخيرا فإن مسؤولية الجمع والحفاظ وصيانة وتحقيق ونشر هذا المخطوط هي مسؤولية الجميع ليس مسؤولية دولة أو جهاز أو مؤسسة ثقافية أو تربوية أو أكاديمية وإنما مسؤولية الأفراد قبل مسؤولية المجتمعات، هذه المسؤولية متعلقة بدرجة الوعي بالذات وحضورها في جميع المجالات التي تعبر عن مدى التحضر والرقى لهذا الفرد من خلاله المجتمع ثم الدولة والأمة.

⁶ - عبد الستار الحلوجي، المخطوطات والتراث العربي، ط1، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة، 2002، ص60 ، 67.